

رحمۃ..

أمر

عذاب؟

أمر عمران

رَحْمَةٌ؟ .. أُمَّ عَذَابٍ ..!؟!

قِصَّة

تامر عمران

هل الجنون رَحْمَةٌ أم عَذَابٌ!؟  
لَعَلَّ فِيهِ رَحْمَةٌ لِإِنْسَانٍ تُعَذِّبُهُ الْحَيَاةُ فَهُوَ يَكْرَهُ مَا يَجِبُ!!  
وَهُوَ مُرَهَفٌ الْحِسِّ، مُهَدَّبُ النَّفْسِ، لَكِنَّهُ قَدْ يَحْسِدُ الْحَيَوَانَ!!  
فَهُوَ يَخْرُجُ إِلَى عَالَمِ الْجُنُونِ فَيَنْفَسُ عَنِ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ وَالغَيْرَةِ وَالْحُبِّ وَالْحِرْمَانِ..  
مُتَرَجِّحَةً كُلَّهَا فِي نَفْسِهِ فِي آن!

إنسان..

مَنْفُوشِ الشَّعْرِ، حَزَنَانٌ..

جَاحِظُ الْعَيْنَيْنِ ..

مَمْرُقَةُ ثِيَابِهِ، عَدْمَانٌ..

بِمَكَانٍ، يَبْكِي بُكَاءً شَدِيداً وَأَنَّ، وَصَرَخَ كَمَنْ مَسَّهُ جَانٌّ:

- أَنَا "الْعَرَبِيُّ"! .. وابن "عَرَبِيَّ" بن "عَرَبِيَّ"! .. كيف لي بالذل والهوان؟!!

أَنَا "الْعَرَبِيُّ"! .. ابن "عَرَبِيَّ" بن "عَرَبِيَّ"! .. ما بال أبنائي بذي الأزمان؟!!

أَنَا "الْعَرَبِيُّ" بن "عَرَبِيَّ" بن "عَرَبِيَّ"! ..!! .. أما من مرشد بأي مكان؟!!

فسمع نداءه الشَّيْخُ "مِسْكِينٍ"، وغيره ومثله من الصَّالِحِينَ، وكذلك سمعه الفَتَى "لَيْبِرَال"، وأبوه الشَّيْخُ "عَلْمَان"، والشَّيْخُ "المِسْتَكِينِ" شَيْخُ الخَارِجِينَ...

\*\*\*\*\*

وَمِنْ جِهَةِ الشَّمَالِ، كَانَ الفَتَى "لَيْبِرَال" أَوَّلَ مَنْ هَرَعَ، وَإِلَى شَكْوَى "العَرَبِيِّ" أَصْغَى وَاسْتَمَعَ، وَلَمَّا فَرَّغَ اصْطَنَعَ لَهُ الفِرْعَ، وَبِالحديثِ قَدْ بَدَأَ وَبِرِعَ:

أَيُّهَا "العَرَبِيُّ" .. مَهْضُومِ الخُفُوقِ، مَصْدُوعِ الشُّفُوقِ، يَالَ الجَبَّارِيَّةَ! مِنْ دَوِيكَ تَسُوقِ، تَسْتَعْبِدُهُمْ وَتَعُوقِ، وَمَا هُمْ إِلَّا مِثْلُ مَخْلُوقِ ..

- وَكَيْفَ لِي بِخِلاصِ أبنائي وَأحفادي؟

أحباب الفَتَى "لَيْبِرَال" وَكَأَنَّهُ مَخْنُوقِ: أَنْ يَبْدَأُوا الحُكَّامَهُمْ بِالعُوقِ ..

- وَكَيْفَ قِرطاس طاعتهم لي، والعقوق مِدَادِي؟

رَدَّ الفَتَى "لَيْبِرَال" مُسْتَبْكاً الأيَادِي: بِأَنْ تُرْسَلَ كَلَاماً صَادِقاً مَصْدُوقِ، وَذَكَرَهُمْ فِيهِ بِالصَّلَةِ والعُرُوقِ، وَأَنْهُمْ أَحْرَاراً وَأَنْ الدِّينَ خُفُوقِ، فَفِيهِمْ مَنْ يَعْتَبِرُهُ فُسُوقِ، وَمَا هُوَ إِلَّا أَحْمَقُ وَخُرُوقِ، فَلِينَادُوا "حَرِيَّةً"، وَلِلْقُلُوبِ حُلُوقِ ..

- أَمَلِي عَلَيَّ كِتَابِي وَكُنْ لِي زَادِي، فَكَلَامُكَ لِي يَرُوقِ ..

دَارَ الفَتَى "لَيْبِرَال" بِرَأْسِهِ وَقَالَ بِصَوْتِ مُنَادِي: قُلْ لَهُمْ: أبنائي وَأحفادي، لَكُمْ مَنِي وَدَادِي، بِالشُّوقِ نَارَ فؤادي، وَلي سؤَالِ يسوقِ:

حُكَّامُكُمْ الأَعَادِي، أَصْحَابُ بطنِ الوَادِي، أَنْدَادُكُمْ أَنْدَادِي، هَلْ تَزَالُ تَعُوقِ؟  
يَسْتَعْبِدُونَكُمْ وَتَرْضُونَ؟! يَسْتَبْدُونَكُمْ وَتَشُونَ؟! يُدْمِرُونَكُمْ وَتَبْنُونَ؟! فَنِدَائِي ذَا كَالْبُوقِ:

تحرروا.. لسنا عبيداً كما يتلون قرآنا!..

تحرروا.. وما لله إلا الدين أَرْكَاناً!..

وتحرروا.. ما مِنْ مُلُوكِ إِلَّا نَا وَنَشْوَانَا..

وأنا أبوكم يا عرب، وأرى لنا الخير اقترب، عُنُّوا ونادوا بالطَّرَب:

ثوروا تنالوا الحرية، ثوروا تنالوا الحرية، ثوروا تنالوا الحرية..

وهكذا فن الكتاب، ارسله هيا تُسْتَجَاب، وارحم ذوبك من العذاب، وكن لهم خير المآب..

ثم اختفى "ليبرال"!.. صار الفتى مثل السراب!..

\*\*\*\*\*

٣

وهنا وصل من جهة العَرَب، الشيخ "عَلْمَان" صاحب الدَرْب، ورأى في وجه "العَرَبِي" الكَرْب،  
وعرف حاله؛ فواجه بِقُرْب:

لايابني! لا تبكي بالصوت الذليل!، فالمستقبل القادم جميل، وما يزيدك لا الصراخ أو العويل!، لَكَ  
مني التعليل والدليل..

- لا عليك يا شيخ "عَلْمَان"! فالفتى "ليبرال" أرشدني السبيل..

ضحك الشيخ "عَلْمَان" بصوتٍ أثيل: هه هه هه! ابني "ليبرال"؟ هذا الفتى الخطير هه هه هه..  
لازال صغير، نعم أصبح الآن خبير، لكن ينقصه أمر كي يكون بصير..

- وما هو ذاك الأمر يا شيخ "عَلْمَان" النصير؟

مد الشيخ "عَلْمَان" يَدَيْهِ بطريقة تمثيلية: الأمر ببساطة هو العلمانية! فنظرة "ليبرال" نظرة فردية، ولن  
تقوم إلا تحت مظلي النموذجية!، فالفتى "ليبرال" يجعل لكل فرد حقوقه الشخصية، فمن أراد أن يسير  
عارياً فهي حرية، ومن أرادت أن تسير بنقاب فهي حرية، ومن أراد أن يُلْحَدَّ عن الدين فهي حرية، ومن  
أراد أن يقيم شعائره الدينية بحرية، فهي حرية!!! وهكذا الحال مع كل حالة اجتماعية، وما الأمر كذلك،  
وإنما لا بد وأن تكون النظرة عالمية..

- وما هي تلك النظرة العالمية؟

أجابه الشيخ "عَلْمَان" بطريقة دهائية: أن تنصح أبنائك وأحفادك بطريقة عَقَوِيَّة! بالفصل بين دينهم  
وشؤونهم الدنيوية! فدينهم في القلب إن كان في الأصل له أهمية! ففيه ما فيه من التخلف والجهل والقيَم  
العُنْصُرِيَّة! وانظر إلى العالم، أنظر للحضارية، أنظر للتكنولوجيا العلمية، أنظر للثقافات الغربية، كل هذا  
مبدأه العلم والعقل، وليس ما يسمونه الدِّين والنَّقْل!!

- لكن يا شيخ.. هناك من لن يقبل بهذا الفصل، فما ذوري حينها مع الأهل؟

تململ الشيخ "عَلْمَان" بهدوء القَوْل وقال: بالقتل يا عزيزي بالقتل!!! فالغاية تبرر الوسيلة بالفعل، ولا تبدأ ذلك مباشرة، بل على مهل! فذاتك الأمر يا ولدي يكون يبذل، وفهم وصبر دون جهل، المهم، ألسنت مقتنعا بالحرية أيها الفحل؟

- نعم يا شيخنا الكهل..

فصرخ الشيخ "عَلْمَان" بفرح: هذا إذن وقت الفتح، هذا إذن وقت النصيح، ناد أيها "العربي" بفصح: حرية!! حرية!! حرية!! ناد أيها "العربي" بمدح: حرية!! حرية!! ناد وابن لنا أعلام الصرح..  
صاح "العربي" بحماسة قوية:

- حرية!! حرية!! حرية!! حرية!! حرية!!

تمتم الشيخ "عَلْمَان" بصوت القُبْح: نعم نعم.. زد من أنين الجرح..

- حرية!! حرية!! حرية!! حرية!! حرية!!

فتزك "عَلْمَان" واستتر.. بظلام.. وجنح...

\*\*\*\*\*

٤

عندها وصل من جهة الشرق اللامح.. الشيخ "المُسْتَكِين" بظاهره الصالح.. وسأل "العربي" عن وجهه الكالج، ولما استعاب، قال مثل المادح:

السلام عليك أيها "العربي" الشقيق، يا طيب القلب يا صديق!، لا تحمل نفسك إلى مالا تطيق،

فتزرع بيدك الخراب والحريق!!

- خراب وحريق؟! وما الذي يؤول لذلك يا شيخنا "المُسْتَكِين" الرفيق، يا صاحب الشكل الأنيق؟!  
أجاب "المُسْتَكِين" بضيق: أن تعاون "عَلْمَان" وابنه وتسير معهم في الطريق..

- لكن ما زادوني إلا بقول رقيق.. بالحرية فقط وصرت عربياً مستفيق.. وناديت أبنائي الدول وأحفادي الشعوب من كل فج عميق.. بالثورة على الظلم من حكام البغي السحيق..

فنظر إليه "المُسْتَكِين" وقال بحزن دفيق: أيها "العربي" ما هذا الانهدام؟ أتصح أبنائك وأحفادك

بالثورة على الحكام؟! أصحاب النظام؟! أصحاب المقام؟! هذا خروج على الإمام! هذا حرام حرام

حرام!!!

- خروج على الإمام؟! ياويلتي ياويلتاه من سوء الختام؟ وأنا الذي ظننت أن بعض الحكام خائف منا مرتعش العظام!

تملت أسارير "المُسْتَكِين"! فأعاد بسرعة واغتمام: يا الله! أهذا بحق فعل الأنام؟ حكامنا خائفون من

الثورة خوف السقام؟!



أجاب الشيخ "مِسْكِين" ودمعه مسكوب: إن هذا لقدرنا المكتوب، هذا سميت الظاهر وما يخفونه معكوس ومقلوب، وأهل السنة من أمثال "المستكين" المغلوب بُرَاء، بَرَاءة الذئب من دم يوسف بن يعقوب عليهما السلام من علام الغيوب، وأنا أتيتك قبله، وقبل "عَلْمَان" الحُرُوب، وابنه "لِيْبْرَال" المنسوب.. لكنك لم تسمع لي، وتهوى أن تكون مَعْصُوب..

- دعني وشأني أجاهد أيها المجدوب!!! إني ذاهب للشورة، ولا أراك إلا شخصاً مكروب! خائفاً من الحكام مرعوب!!!

فربت الشيخ "مِسْكِين" على كَتِف "العَرَبِي" بإرشاد: أي بني! إنه ليس كما زعموا جهادا! إنهم يُكْفَرُونَ مَنْ ضِدَّهُمْ فِي الْبِلَادِ مِنَ الْعِبَادِ، وَيظن الظَّانَ فِيهِمْ أَنَّهُمْ سُبُلُ الرَّشَادِ، وَمَا هُمْ إِلَّا مُتَلَوِّثُونَ مُتَحَوِّثُونَ سُودَ الْفُؤَادِ..

- لعمري إنها ظنونك الكواذب! أبنائي اسمعوني ولبوا المطالب! يا أحفادي إن هذا هو مجدنا الغالب! ناشده الشيخ "مِسْكِين" من كل جانب: ويلك أيها "العَرَبِي"! أهوى أن يكون لك جار محارب وشريك في الدار مشاغب! ويلك أيها "العربي"! بثورتك تقليد للغرب العقارب، بثورتك تقليد للخارجي الخارب، بثورتك سمع وطاعة للثعالب..

- اتركني لحالي! لأرحم أهلي والأقارب، أترضى بظلم الحكام السالب وتريدني أعيش كالهارب؟! أترضى بسنوات الضنى والجوع وما حملته المناكب!؟

أجابه الشيخ "مِسْكِين" بِقَوْلٍ لَاهِبٍ: إِنَّمَا أَعْمَالِكُمْ عُمَّالِكُمْ، وَكَمَا تَكُونُوا يُؤَوَّى عَلَيْكُمْ، قَالَهَا السَّلْفُ الصَّالِحُ قَبْلَكُمْ، فَالْحَاكِمُ مِنْكُمْ، وَبِظُلْمِكُمْ أَنْفُسَكُمْ وَالنَّاسَ؛ ظَلَمَكُمْ، وَلَمَّا قَتَلْتُمْ أَنْفُسَكُمْ قَتَلْتُمْ، وَبِعَدَمِ رَحْمَةٍ بَعْضِكُمْ بَعْضًا فَهَرَّكُم، فَحَاكِمِكُمْ بِحِكْمَةِ اللَّهِ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ جِنْسِكُمْ، شَرِيرٌ فَاجِرٌ كَأَفْعَالِكُمْ، فَالْإِصْلَاحُ يَبْدَأُ مِنْ أَنْفُسِكُمْ وَأَبْدَانِكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ وِلَاةِ أُمُورِكُمْ، اصْلَحُوا أَعْمَالَكُمْ، يُصْلِحِ اللَّهُ وَلَا تَكُم، تَحَلَّوْا يَا عَرَبٌ بِالْأَخْلَاقِ وَالْحِلْمِ، وَالصَّبْرِ الصَّبْرِ عَلَى الظُّلْمِ، فِيهِ تَكْفِيرٌ لِدُنُوبِنَا وَدُنُوبِكُمْ، وَبِالصَّبْرِ بُشْرَى لَنَا وَلَكُمْ، هَكَذَا فِي الْقُرْآنِ وَسُنَّةِ نَبِيِّكُمْ، وَبِهَذَا قَالَ تَابِعِيهِ بِإِحْسَانٍ إِلَى يَوْمِكُمْ..

- دعني! لا تعينني ترهاتك وترهات أمثالكم! حرية! حرية!..

فناداه الشيخ "مِسْكِين" بصوت حزين محزون: أيها "العربي" لا تطعمهم إنك بكلامهم مطعون..

- سأرحمكم أبنائي وأحفادي من عذاب ريب المنون!

ثوروا تنالوا الحرية!! حرية!! حرية!!!!

فناجاه الشيخ "مسكين" بصوت حزين مدفون: أيها "العَرَبِي" لا تتور فتصير مجنون..

- ثوروا تنالوا الحرية!! حرية!!! حرية!!! حرية!!!!

حرية!!!! حرية!!!! حرية!!!! حرية!!!!

فدعاه الشيخ "مِسْكِين" بصوت حزين مكنون: أيها "العَرَبِي"..



- ثوروا تنالوا الحرية!!!

حرية!!!!!!

حرية!!!!!!

حرية!!!!!!

فأغلق الشيخ "مسكين" الجفون، واعتزل عن فتنة "العربي" المفتون، وذهب إلى الصالحين أصحاب العلم الشرعي المصون..  
وبعد أيام وغضون...

\*\*\*\*\*

٦

مر الشيخ "مسكين" بذات المكان..  
ليجد "العربي" .. يصرخ.. كمن مسه جان..  
وأمامه أبنائه وأحفاده..  
بعضهم طريح الجثمان..  
ممزق اللحم.. مهشم الأسنان..  
ورؤوسهم عجينة دامية.. مفتتة العظام والأبدان..  
والبعض الآخر..  
هائجون.. وجن جنونهم كالنيران..  
فقد تقاتلا قتالاً مميئاً.. بالزور والبهتان..  
و"العربي" .. يبكي..  
بكاءاً شديداً وأنّ..  
لعله وهو في غمرة جنونه الفتان..  
لا يزال يشعر ببشاعة جريمته بالبلدان..  
وما زال..  
مُزَقَّة ثيابه، عَدَمَان..  
جَاحِظُ العَيْنَيْن، حَزَنَان..  
مَنْفُوش الشَّعْر..  
إِنْسَان..

- النهاية -